١ –المسجد الأقصى: تاريخ ورمز ومقاومة

بقلم الأستاذ الدكتور وليد الشوملي .

محاضر في جامعة بيت لحم – فلسطين

عضو المركز الاستشاري العربي الموحد التابع للهيئة العليا للعلماء والمفكرين العرب

walidshomaly@yahoo.com

لمحة تاريخية:

تبلغ المساحة الكلية لباحات المسجد الأقصى قرابة ١٤٤ دونم وتشمل قبة الصخرة والمسجد القبلي والمصلّى المرواني ومعالم كثيرة أخرى قد يبلغ عددها ٢٠٠ معلم. وتقع باحات المسجد الأقصى فوق هضبة صغيرة تدعى "هضبة موريا"، حيث تحتل قبة الصخرة أعلى نقطة في المكان، لا بل تقع في قلبه. ويعد المسجد الأقصى من أبرز المعالم الإسلامية لا في فلسطين فحسب، بل في العالم أسره.

لقد شرع الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان ببناء مسجد قبة الصخرة عام ٦٨٥ ميلادي (٦٦ هجري)، وانتهى العمل فيه عام ٦٩١ ميلادي (٧٢ هجري). ومسجد قبة الصخرة عبارة عن بناء مثمن الأضلاع له أربعة أبواب وفي داخله تثمينه أخرى تقوم على أعمدة اسطوانية، في داخلها دائرة تتوسطها "الصخرة المشرفة" التي يعتقد المسلمون أن النبي محمد عرّج منها إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج، كما تعلو المسجد قبة ذهبية أعطته رونقاً وجمالاً قل نظره.

وبالإضافة إلى مكانتها الدينية، تعتبر قبة الصخرة إحدى أهم المعالم الإسلامية في العالم، كونها تمثل إحدى اقدم النماذج في العمارة الإسلامية، كما أن روعتها الفنية تكمن في زخارفها المتنوعة التي تعكس بصمات الحضارة العربية الإسلامية على مر العصور.

يختلط الأمر على الكثيرين في عملية التسمية للمسجد الأقصى، إذ أنه كما أسلفنا، فإن تلك التسمية تحتوي على مسجدي الصخرة والمسجد القبلي بالإضافة إلى المصلى المرواني. أما عندما يقول أحدهم أنه ذاهب للصلاة في المسجد الأقصى، فإنه يعني بذلك المسجد القبلي الذي تعلوه القبة الرصاصية، وليس مسجد قبة الصخرة ذو القبة الذهبية. ففي واقع الأمر، شرع ببنائه الخليفة عبد الملك بن مروان في عام ٦٨٥ ميلادي (٦٥ هجري) جنباً إلى

جنب مع مسجد قبة الصخرة، وتواصلت أعمال البناء فيه في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك حتى انتهت عام ٧١٥ ميلادي (٩٦ هجري).

وقد تعرض المسجد الأقصى لعدة زلازل أدت إلى تدميره وبدرجات متفاوتة. ففي عام ٧٤٦ ميلادي أي قبل انتهاء الحقبة الأموية بأربع سنوات تعرض الأقصى إلى أول زلزال تبعه زلزال آخر في بداية الحقبة العباسية أي عام ٧٧٤ ميلادي، ثم تعرض لأضرار بليغة إثر زلزال آخر ضربه عام ١٠٣٣ ميلادي ،حيث تم تجديده في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر.

وقع المسجد الأقصى كغيره من المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين تحت حكم الفرنجة في العام ١٠٩٩ ميلادي حيث حولوه إلى مقر لفرسان الهيكل، ثم استعاده صلاح الدين الأيوبي من أيدي الفرنجة بعد انتصاره عليهم في معركة حطين عام ١١٨٧ ميلادي .

وبعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧، تعرض المسجد الأقصى في صبيحة يوم الخميس الموافق ٢٢ اغسطس/آب ١٩٦٩ لحريق على يد يهودي استرالي متطرف اسمه مايكل روهان، حيث أدى إلى انهيار سقف القسم الشرقي الكامل من الجامع القبلي، بالإضافة إلى احتراق منبر صلاح الدين، وقد تم إعادة ترميم المسجد الأقصى ومنبر صلاح الدين على نفقة الحكومة الأردنية التي ما زالت حتى الآن هي الوصي الوحيد على المقدسات الإسلامية والمسيحية في المدينة المقدسة. فقد بايع الفلسطينيون وأهل القدس قبل ٩٥ عاماً، وبالتحديد في الحادي عشر من شهر مارس/آذار سنة ١٩٢٤ الشريف حسين بن علي الهاشمي بالوصاية على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس. وقد تبرع الأمير عبد الله بن الحسين آنذاك بمبلغ ٣٨ ألف ليرة ذهبية من ماله الخاص، بالإضافة إلى تبرعات جاءت من العراق والهند ودول إسلامية أخرى .

وقد تم في عهد الملك الحسين بن طلال، بمرسوم ملكي، تشكيل لجنة لإعمار الأماكن المقدسة في القدس، عُرفت بقانون "إعمار المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة لسنة ١٩٥٤". ثم باشرت الحكومة الأردنية بعمليات الإعمار في العام ١٩٥٨.

ولسنا هنا بصدد الولوج في تفاصيل تاريخ بناء المسجد الأقصى أو هندسته المعمارية بل هدفنا في هذا البحث هو إبراز أهمية المسجد الأقصى كرمز للمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي الشرس وارتباطه بالهوية الفلسطينية في ظل المحاولات الإسرائيلية لتهويد المشهد الطبيعي والثقافي لمدينة القدس.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الدفاع عن الأقصى يتسم بطابع ديني محض، ولكن في الحقيقة فإنه يمثل رمزاً وطنياً لكل فئات الشعب الفلسطيني بمسلميه ومسيحييه، وما أن يستشعر الفلسطيني بأي خطر قادم، يهب المسيحيون والمسلمون هبة رجل واحد في الدفاع عنه.

أشكال المقاومة وتجلياتها:

يرى ميشيل فوكو أن المقاومة توجد حينما توجد السلطة . فالسلطة في معناها الفلسفي وكما تصفها ميرفت ياقوت هي: "سمة كلية الوجود للتفاعل الإنساني. فهي توجد في كل مكان ومتاحة لكل الأشخاص، وقد تنشأ عن السعي وراء أي هدف" . فالمقاومة إذن مشروطة بوجود سلطة ما. والسلطة وفق فوكو تمتلك قوة وهيمنة وتخوض صراعات خفية وظاهرة، وبالتالي فإن المقاومة هي رد فعل طبيعي على هيمنة السلطة.

أما الحالة الفلسطينية، فتتفرد بأن السلطة المهيمنة والمسيطرة هي سلطة غريبة ومحتلة للأرض والبشر والثروات الطبيعية والمياه والأماكن المقدسة وغيرها. وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يكون شكل وطبيعة وهدف المقاومة الفلسطينية هو دحر الاحتلال وبسط السيادة الوطنية الفلسطينية أقلها على الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ والتي تتمثل بالضفة الغربية، والشطر الشرقي من مدينة القدس، وقطاع غزة.

وفي الآونة الأخيرة بدأ الفلسطينيين بإدراك أهمية المقاومة الشعبية وتأثيرها الإقليمي والدولي. يقول مازن قمصية في المقاومة الشعبية: "إن انخراط المواطنين في القيام بدور نشط في المقاومة الشعبية يبدأ بإقناعهم بأنه يمكن إحداث تغيير في الواقع" . أما الباحثان ليندا طبر وعلاء العزة يصفان المقاومة الشعبية أنها: "الممارسة الجماهيرية الفعلية لمواجهة السياسات الاستعمارية والمشروع الاستعماري ككل ضمن رؤية وطنية شمولية واضحة الأهداف من خلال صيرورة ممنهجة لتفكيك المشروع الاستعماري، تتحول إلى ممارسة نضالية يومية متعددة التكتيكات، دون الدخول في ثنائية العمل المسلح والعمل الجماهيري" .

ونستطيع القول أن المعركة ضد الاحتلال الإسرائيلي هي معركة ضد استعمار استيطاني وانها ليست حرباً دينية على المقدسات والأماكن المقدسة، بل أن الأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية تشكل رموزاً وطنية وثقافية ودينية وكذلك إرثاً حضارياً وجزءاً من الهوية الفلسطينية. فقد وصف المفكر عزمي بشارة انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ بقوله: "ليست معركة التحرر الوطني الفلسطيني حرباً دينية، ولا انتفاضة القدس والأقصى حرباً عقيدية على الرغم من بعدها الديني ورموزها الدينية ... تكاد لا توجد حرب تحررية دون بعد ديني أو رمزي يضاف إلى دوافع المجاهدين المقاتلين وإلى رموز الوطن والوطنية ... معركة الفلسطينيين هي معركة مستعمَرٍ بمستعمِر ... ليست انتفاضة الأقصى انتفاضة دينية، بل انتفاضة وطنية شاملة اتخذت من الحرم القدسي الشريف رمزاً لها. والأقصى مقدس للمتدينين وغير المتدينين كرمز وطني فلسطيني، والخلاف مع إسرائيل ليس على قدسيته للمسلمين، بل على احتلاله من قبل إسرائيل" .

سياسات الاستعمار الإسرائيلي إزاء القدس والمسجد الأقصى:

يؤكد نزار أيوب أن عملية التطهير العرقي قد بدأت على أرض الواقع في القدس منذ احتلال القدس الغربية والقرى المتاخمة لها عام ١٩٤٨. وبعد عام ١٩٦٧ وبهدف اتباع سياسات التطهير العرقي تخطط إسرائيل لخلق واقع جديد في القدس الشرقية وبأغلبية يهودية تبلغ حوالي ٧٠٪ مقابل أقلية عربية فلسطينية حوالي ٣٠٪. وتشمل تلك السياسات الاستيلاء على الأراضي تحت حجة استخدامها للمصلحة العامة وهدم المنازل بحجة عدم حصول أصحابها على تراخيص بناء مسبقاً (علماً أنّ الحصول على تصريح للبناء من بلدية القدس يستغرق سنوات طويلة ويكلف أموالاً طائلة)، بالإضافة إلى التلاعب بسندات الملكية، وعدم منح حق الإقامة في القدس لزوجات أو أزواج المقدسيين أو المقدسيات (والذي يقع تحت بند ما يدعى بـ "لم شمل العائلات")، وكذلك إلغاء حق الإقامة في القدس تحت ذرائع متعددة، وعدم منح تصاريح لأبناء الضفة الغربية بدخول القدس .

أما بالنسبة للمخططات الإسرائيلية بشأن تهويد القدس فهي ترتكز على مسارين: المسار الأول يتمثل في طمس آثار معالم القدس العربية والهجوم على الأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية في المدينة بشتى الوسائل. فقد قامت إسرائيل على سبيل المثال قبل فترة من الزمن بمحاولة فرض ضريبة الأملاك على الكنائس المسيحية في حين أنه لم يحدث منذ زمن الاحتلال العثماني للمدينة أن تم فرض تلك الضريبة على العقارات التابعة للأوقاف الدينية. أما بخصوص الهجمة الشرسة على المسجد الأقصى، فيشهد العالم أجمع الهجمات المتكررة للمستوطنين واقتحامهم لباحاته ومحاولة الاعتداء عليه من قبلهم الذي يقابل دائماً بالتصدي لهم من قبل الشباب الفلسطينيين الأبطال والمرابطين هناك والذين هم على استعداد بالتضحية بالغالي والنفيس في الدفاع عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

فإسرائيل تحاول دائماً أن تصعد من اقتحاماتها المتكررة للمسجد واستهداف الموظفين والحراس وسدنة المسجد الأقصى، كما أنها تحاول تغيير الوضع القائم لكي يتمكن المستوطنون اليهود من الصلاة في المسجد الأقصى.

كما تقوم السلطات الإسرائيلية بعرقلة عمل دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس التابعة لوزارة الأوقاف الأردنية وتعطيل مشاريع الصيانة والترميم لمصلى باب الرحمة وكذلك باقي المصليات والجدار الغربي الجنوبي الذي سقطت منه حجارة قبل مدة من الزمن. وفي الآونة الأخيرة اقتحم حوالي ١٥٠ متطرفاً يهودياً المسجد الأقصى تحت حماية الشرطة والقوات الخاصة الإسرائيلية. ومن اللافت للنظر، أن هناك عدداً لا بأس به من السياح الأجانب المتصهينين والداعمين للمشاريع الإسرائيلية الاستيطانية يقومون أيضاً باقتحام المسجد الأقصى. فقد اقتحم المسجد الأقصى في يوم واحد قبل مدة قصيرة من الزمن ٥٧٧٧ سائحاً أجنبياً، ويقوم هؤلاء الأجانب باقتحام المسجد بلباس فاضح وحركات استفزازية لا تليق بقدسية المكان. كما ذكرت دائرة الأوقاف الإسلامية بالقدس أنه تم مؤخراً اقتحام المسجد الأقصى من قبل ٦٣ مستوطناً و ٦٠ طالباً من الجامعات والمعاهد اليهودية على شكل مجموعات متتالية، وقاموا بجولات استفزازية في باحاته، وحضروا جلسات تعليمية للشرح عن "الهيكل" المزعوم.

كما تقوم بين الحين والآخر مجموعات من المستوطنين وأشخاص ينتمون إلى ما يدعون "بضيوف الشرطة الإسرائيلية" وأفراد المخابرات الإسرائيلية باقتحام الأقصى والتجول في أروقته وممارسة الشعائر والطقوس التلمودية. كما تقوم شرطة الاحتلال بفرض قيود على دخول المصلين للمسجد الأقصى قبل وأثناء اقتحام المستوطنين للمسجد، وتقوم باحتجاز هويات بعضهم عند البوابات، وتفتيش حقائبهم، وكذلك تصوير المرابطين والمرابطات وحراس المسجد الذين يوثقون عادة تلك الانتهاكات.

كما لفتت دائرة الأوقاف الإسلامية إلى أن هناك استهدافاً إسرائيلياً لمنطقة باب الرحمة والمنطقة الشرقية، حيث تشكل تلك المنطقة العنصر الرئيسي ورأس الحربة في تقسيم المكان كي يصبح للمستوطنين الإسرائيليين موطئ قدم ثابت ودائم لإقامة صلواتهم التلمودية بشكل جماعي وعلني في ظل حماية قوات الاحتلال. وما زالت قوات الاحتلال تعرقل عمل لجنة إعمار المسجد الأقصى من ترميم الممر المبلط جنوب باب الرحمة، وفي حال بقي البلاط مقتلعاً في فصل الشتاء فقد تؤثر مياه الأمطار المتراكمة على السور الاستنادي المحيط بباب الرحمة.

أما بخصوص التنقيبات الأثرية فإن الحفريات الكبيرة التي تقوم بها سلطات الاحتلال تشكل خطراً على مباني المسجد الأقصى خاصة في حفر الأنفاق من أسفله تحت ذريعة البحث عن آثار هيكل سليمان المزعوم. والجدير بالذكر أن شرعت إسرائيل خاصة منذ عام ١٩٩٦ بمشروع أطلقت عليه مشروع "الحوض المقدس" التهويدي الذي يبدأ بحيّ الشيخ جراح شمالاً مروراً بالبلدة القديمة ووصولاً إلى بلدة سلوان التي يدّعون أن مدينة داود كانت قد أقيمت عليها وانتهاء بسفح جبل المكبر بهدف إضفاء الصفة اليهودية على تلك البقعة الجغرافية. وبالتالي فإن هذا المشروع سيفضي إلى مسح آثار معالم المدينة العربية والإسلامية وخنق البلدة القديمة بالمسارات والأبنية ذات الطابع اليهودي لطمس هوية المدينة وأماكنها المقدسة وأهمها المسجد الأقصى. كما يهدف مشروع الحوض المقدس أيضاً إلى جعل البلدة القديمة في القدس مشابهة في تفاصيلها للوصف التوراتي المزعوم لأورشليم القديمة وفق المعتقدات اليهودية، علماً أن الأبنية المقترحة ذات الطابع اليهودي ستقام على أنقاض آثار يبوسية وإغريقية ورومانية وبيزنطية وعربية، حيث ستبلغ مساحة ذلك الحوض حوالي ١٥ ألف متر مربع ويحتوي على مبان تحتوي متحفاً تلمودياً يحتوي على آثار مسروقة من الحفريات المحيطة بالأقصى وذلك لترويج الرواية اليهودية. كما تتبع إسرائيل سياسة ممنهجة في تغيير أسماء الأماكن في المدينة لإضفاء الصبغة التوراتية التلمودية عليها، ناهيك عن محاولة كتابة أسماء الأماكن والشوارع بلغة عربية ركيكة ومشوهة لأجل تشويه التركيب اللغوي لدى الأطفال الفلسطينيين منذ صغرهم منطلقين من وعيهم وإدراكهم لأهمية اللغة لأي شعب أو أمة على أنها أكبر حاضنة ثقافية للهوية. أضف إلى ذلك، تحاول إسرائيل وضمن سياسة ممنهجة نشر المخدرات بكثافة في القدس لإفساد الشباب المقدسي.

أما المسار الثاني من تلك المخططات الإسرائيلية إزاء القدس على وجه التحديد فإنه يتمثل في طمس الهوية والثقافة الوطنية عن طريق تهويد التعليم وفرض المناهج الإسرائيلية في المدارس العربية في المدينة في محاولة لتشويه التاريخ الفلسطيني بشكل عام وتاريخ المدينة المقدسة على وجه الخصوص، وفرض الرواية اليهودية على الطلاب العرب. إلاّ أن الباحث أحمد عز الدين أسعد يرفض مصطلح التهويد ويفضل استخدام مصطلح صهينة أو عبرنة أو أسرلة القدس وهويتها ومعالمها لما تضفيه كلمة تهويد طابعاً دينياً للصراع وهو ما تريد إسرائيل جر الفلسطينيين إليه وتحويله من صراع قومي وجودي إلى صراع ديني .

فمقاومة الشعب الفلسطيني في القدس ضد جميع أنماط التنكيل الإسرائيلي تحمل في طياتها أنواعاً متعددة من المعاناة. فالمقدسيون يعيشون، خاصة في البلدة القديمة، في بيوت صغيرة ومكتظة أشبه بالزنازين، كما أن المقدسيين يقاومون بأجسادهم إجراءات مصادرة وهدم البيوت، وكذلك يتصدون بكل قواهم لمحاولات تفريغ المدينة المقدسة من سكانها الأهليين .

وكما أسلفنا سابقاً فإن تكاليف الحصول على رخصة بناء في القدس باهظة جداً ناهيك عن شحتها مما يضطر الكثير من المقدسيين للبناء دون ترخيص، إلى حين اكتشاف سلطات الاحتلال عدم الترخيص وإصدار أوامر الهدم، مما يضطر صاحب البيت هدم بيته بيده هو وعائلته لتجنب التكاليف الباهظة للهدم في حال استعان بجهات مختصة. ومن هنا نستطيع تخيل المعاناة المادية والنفسية التي تتعرض لها العائلة المقدسية في تلك الحالة. بالإضافة إلى ذلك فإن سلطات الاحتلال الإسرائيلية ودوائرها ووزاراتها المختلفة تقوم بالإضافة إلى رخص البناء الباهظة، بفرض كافة السياسات والوسائل لإجبار المقدسيين ترك أماكن سكنهم في القدس، حيث تقوم بفرض الغرامات والمخالفات الباهظة، ومطالبة المقدسيين بإثبات سكنهم الدائم في القدس من خلال ابراز فواتير المياه والكهرباء وشهادات تعليم الأبناء، وابراز قسيمة ضريبة "الأرنونا" أي ضريبة العقارات والأملاك، والملاحقات والتحقيقات المستمرة من قبل وزارة الداخلية ومؤسسات التأمين الإسرائيلية التي تمنح الوثائق الرسمية للمقدسيين (كالبطاقة الشخصية وشهادات الميلاد، ومنه لم شمل العائلات المقدسية كما أسلفنا سابقاً، وكذلك مصادرة الأراضي).

هبة القدس الأخيرة عام ٢٠١٧

كانت الشرارة التي أشعلت هبة القدس الأخيرة والتي اندلعت في شهر يولو/تموز عام ٢٠١٧، رد فعل على السلوك العدواني الإسرائيلي اتجاه القدس والمسجد الأقصى والذي تمثل بإغلاقه لأول مرة لثلاثة أيام متتالية وبالتحديد في

الفترة الواقعة من يوم الجمعة ٢٠١٧/٧/١٤ وحتى يوم الأحد ٢٠١٧/٧/١٦، مما شكل صدمة لجميع الفلسطينيين عامة وللمقدسيين على وجه الخصوص.

لم تكن تلك الهبة وليدة حدث واحد أو فترة زمنية محددة، بل كانت عفوية ونتيجة تراكم الأحداث المؤلمة والتي بلغت ذروتها في حادثة إحراق الطفل محمد أبو خضير في القدس عام ٢٠١٤. لم يكن إغلاق الأقصى العامل الوحيد في تحفيز الفلسطينيين بالوقوف بحزم في وجه سلطات الاحتلال الإسرائيلية، بل أيضاً فيما قامت به المؤسسة الإسرائيلية الرسمية أثناء إغلاق المسجد من إجراءات تعسفية.

فقد قامت أفراد من المؤسسات الأمنية والعسكرية والثقافية والتاريخية، بدخول المسجد الأقصى من باب المغاربة وخلع بعض أبوابه والتنقيب فيه. وقد استطاع الشباب المقدسيون المرابطون رصد دخول علماء الآثار وطواقم بلدية المدينة وطواقم دوائر الترميم والموروث الثقافي والبيئة وغيرهم، وما أن اكتشف المقدسيون أنه قد تم المساس بالقبور والمتاحف والمكتبات هب الشباب المقدسي هبة رجل واحد.

كما سجل الشباب المقدسي انتصاراً على الاحتلال عندما أذعن هذا الأخير أمام وقفة الصمود البطولية بعدم استخدامهم للبوابات الإلكترونية التي نصبتها سلطات الاحتلال أمام المسجد الأقصى لإرغام المصلين الدخول من خلالها إلى المسجد. وقد اضطرت أخيراً سلطات الاحتلال إلى إزالة تلك البوابات مما شكل انتصاراً كبيراً لا للمقدسيين فحسب بل لكافة أبناء الشعب الفلسطيني.

وأخيراً نستطيع أن نلخص سمات الحراك المقدسي وصمود مقاومة الشباب في القدس ضد إجراءات الاحتلال الإسرائيلي ضد القدس والمسجد الأقصى على أنها عفوية تفتقد إلى مرجعية وطنية خاصة بعد رحيل القائد الوطني "أمير القدس" فيصل الحسيني عام ٢٠٠١. كما تتسم المقاومة المقدسية أيضاً بعدم انتمائها لفصيل سياسي معين، مما يضفي عليها صفة الشمولية وإعطائها طابع الحركة الاجتماعية التي تعبر عن وجدان وضمير كل مقدسي وفلسطيني. وقد أضحت تلك المقاومة نمط حياة يومي اعتاد عليه المقدسيون خاصة المرابطون في المسجد الأقصى الذين يتصدون يومياً لكافة أشكال التحركات والاقتحامات ضد المسجد الأقصى سواء من قبل المستوطنين أو من قبل المؤسسة الإسرائيلية الرسمية. ناهيك عن الصمود الأسطوري لسكان البلدة القديمة في القدس ضد سياسات التفريغ والتهجير التي تقوم بها السلطات الإسرائيلية ضدهم.

وخلاصة القول، فإن معركة الدفاع عن القدس وعن مقدساتها الدينية بما فيها المسجد الأقصى ستزداد شراسة يوماً بعد يوم في ظل الهجمة الصهيونية المستعرة لمحو التاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى الدعم الأمريكي اللامحدود والذي تمثل مؤخراً بصفقة القرن وشرعنة المستوطنات مما جعل المعركة في القدس قضية وجود أو فناء.